پول ڤاليرى

يسميه الفرنسيون شاعر العقل ، ونستطيع أن نسميه عقل الشعر ؛ فهذان الوصفان يصورانه أصدق تصوير ، وكلا الوصفين يطابق صاحبه مطابقة دقيقة صادقة. والواقع أن حياة پول ڤاليرى قد كانت سباقاً بينه وبين الأدب ، يفر هو من الأدب ما وجد إلى الفرار سبيلا، ويجدّ الأدب فى طلبه ما وجد إلى الجد فى طلبه سبيلا . وقد يضطر هذان المتسابقان إلى أن يلتقيا ، فإذا كان بينهما اللقاء بدأ بينهما حب عنيف ووصال شديد القسوة قوامه الصراع المتصل، ثم ينكشف هذا الجهاد عن أثر من الآثار لا يستطيع الانسان أن يقول أى المصطرعين قد غلب صاحبه عليه ، أهو الأدب الذى قهر پول ڤاليرى فأكرهه على أن يخرج للفرنسيين أروع ماعرفوا من الشعر وأبرع ماقرءوا من النثر، أم هو پول ڤاليرى الذى قهر الأدب واضطره إلى أن يذعن لسلطان العقل ويخضع لأصوله الدقيقة ومناهجه الصارمة ، ويخرج للفرنسيين حكمة مشرقة وفلسفة مضيئة قوامها الخير فى أبدع صوره ، والحق فى أكرم مظاهره ، والجمال كأروع ما يكون الجمال .

وقد يظن القارئ أنى أذهب بهذا الحديث مذهب التمثيل والمجاز المقارب أو المباعد والافتنان فى التعبير، ولكن الواقع من حياة پول ڤاليرى ومن جهده العقلى والأدبى يطابق هذه الصورة التى عرضتها عليك أدق المطابقة وأصدقها . فقد ولد پول ڤاليرى سنة ١٦٧١ فى مدينة ست ونشأ فيها وبدأ فيها درسه ، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة انتقل إلى مونبلييه ليتم فيها درسه الثانوى . وكان أثناء هذا الدرس مزدرياً لنظام الدراسة، معرضاً عن درس المعلمين، ناقداً لأساتذته، ساخراً مما يقولون ، مؤثراً الاعتماد على نفسه فى تحصيل ما يحتاج إليه أو ما يميل إليه من العلم. وكان طموحاً إلى العمل فى الأسطول ضابطاً بحرياً ، ولكنه لم يظفر من العلوم الرياضية بما كان فى حاجة إليه ليدخل المدرسة البحرية . ولذلك أعرض عن البحر وعن الأسطول وعن الرياضة واكتفى بدراسة الحقوق . ثم كانت الخدمة العسكرية حين أتم التاسعة عشرة من عمره فى مدينة مونبلييه أيضاً . وفى

هذا الوقت عرف شابين فرنسيين كان لهما حظ من البحر عظيم: أحدهما بيير لويس، والآخر أندريه جيد. ولما فرغ من الخدمة العسكرية، وكان قد قرض شيئاً من الشعر، لم تعجبه الحياة الأدبية، فقرر الانصراف عنها والفراغ للحياة العقلية الخالصة، وأنفق فى هذه الحياة العقلية الخالصة أعواماً. وأكبر الظن أنه أخذ يقرأ آثار الفلاسفة القدماء والمحدثين، ويفكر فيما يقرأ ناقداً محللاً مستنبطاً. وأكبر الظن أن السباق بينه وبين الأدب قد بدأ فى ذلك الوقت؛ فهو كان قرض شيئاً من الشعر ونشره فى بعض المجلات وظفر بشىء من الإعجاب، ولكنه أعرض عن الشعر وفرغ للفلسفة، وإذا حياته العقلية التى فر إليها من الأدب تثير فى نفسه خواطر لا يجد بداً من تسجيلها، ولو استطاع لما سجلها ولا حفل بها. ولكن هذه الخواطر تلح عليه وتلح، وتضطره إلى أن يقف عندها ويطيل الوقوف، ثم إلى أن يسجلها فيحسن التسجيل، وهو يكتب آيته الرائعة «مسيو تست». ومسيو تست هذا ليس إلا بول ڤاليرى فى هذا الطور من حياته، حين شغف بالعقل وآثر أن ينحاز إليه ويقف نفسه على التفكير فيه، وحين بهره ما رأى من حياة العقل فيما بينه وبين نفسه أولاً وفيما بينه وبين الحقائق الخارجية ثانياً. وقد اضطره هذا المشهد الرائع الذى استكشفه حين عكف على نفسه إلى حياة داخلية قوية أشد القوة، إن صح هذا التعبير؛ فهو قد استكشف فى ضميره عالماً أشد جمالا وأعظم روعة وأكثر دقة وتنوعاً من العالم الخارجى الذى يعيش فيه، فمنح عنايته كلها أو أكثرها لهذا العالم الداخلى، وعاش مع نفسه أكثر وقته، ولم يصبح العالم الخارجى بالقياس إليه إلا وسيلة للعالم الداخلى يمنحها من العناية أيسرها وأهونها شأناً. فهو يحيا بين الناس وكأنه لا يراهم، ويتحدث إليهم وكأنه لا يسمعهم لأنه مشغول بهذا العالم الرائع البديع الذى يملأ نفسه من جميع أقطارها. فحياته فى العالم الخارجى آلية غافلة ذاهلة، ولكنه يمنح هذا العالم الخارجى فى بعض الأوقات النادرة لفتة من لفتاته، وإذا هو يلتهمه التهاماً وينقض عليه كما ينقض الوحش على فريسته، ثم لا يلبث أن ينصرف عنه إلى عالمه الخاص وكأنه لم يره ولم يلم به.

والمهم هو أن بول ڤاليرى الذى فر من الأدب إلى الفلسفة لم يستطع أن يفلت من الأدب، وإنما أدركه الأدب، وكان بينهما هذا الجهاد الذى انتهى بانشاء هذا الكتاب الذى سيظل شابا دائماً وخصباً دائماً وحافلاً بما يملأ النفس

إعجاباً وبما يدفع العقل إلى التفكير المتصل الذى لا يضيع فى غير نفع ولا يذهب فى غير غناء .

وفى هذا الكتاب الصغير القصير الحجم الكبير الطويل بقيمة ما فيه من فن وفلسفة ، ظهرت هذه الشخصية القوية التى عرفها المثقفون والمتأدبون لبول ڤاليرى أثناء حياته كلها . فإذا كان شخص بول ڤاليرى يمتاز بشىء فى حياته، وفيما أنتج من شعر ونثر، فإنما يمتاز بهذا الصراع المتصل العنيف المتغلغل فى كل شىء المتناول لكل شىء بين عقله العظيم الرزين ذى المزاج المعتدل والبصيرة النافذة والقدرة على التجريد والنظر إلى الأشياء من عل ، وبين حسه الدقيق المرهف وشعوره الرقيق الحاد وذوقه المصفّى المهذّب. ثم يمتاز بأن هذا الصراع ينتهى دائماً إلى نوع من السلام الممتاز الرائع بين العقل والحس والشعور والذوق . فأنت حين تشهد نتائج هذا الصراع إنما تشهد انسجاماً غريباً بديعاً بين هذه العناصر كلها، قد أخذ من كل واحد منها بمقدار، ولاءم بين هذه المقادير ملاءمة دقيقة إلى أبعد حدود الدقة، بحيث لاتستطيع أن تجد فيها عوجاً ولا أمتاً ولا انحرافاً . ومصدر هذا كله أن هذه الملكات التى يأتلف منها شخص بول ڤاليرى قد كانت قوية إلى أبعد غايات القوة ، معتدلة مع ذلك إلى أقصى حدود الاعتدال . وكانت إرادة بول ڤاليرى متسلطة على هذه الملكات تسلطاً قوامه الحزم والعدل ؛ فهى تلائم بينها فى صرامة وتقيم الأمر بينها بالقسطاس وتمنع بعضها أن يبغى على بعض . وما أعرف انى قرأت لكاتب أو شاعر فى لغة من اللغات التى استطعت أن أقرأ فيها ، فوجدت هذا الاعتدال والاستواء والتناسق كما أجدها فيما أقرأ لهذا الكاتب الشاعر العظيم، لا أستثنى من ذلك إلا حوار سقراط . وما أظن أن شيئاً قد أثر فى التكوين العقلى لڤاليرى كما أثر فيه حوار سقراط .

وفى أواخر القرن الماضى فى سنة ١٨٩٨ كان بول ڤاليرى الذى قارب الثلاثين يعيش فى باريس، وقد اشتغل موظفا فى وزارة الحرب معرضاً عن الأدب والأدب يطلبه، متصلا مع ذلك بالشاعر الفرنسى العظيم «ستيفان مالرميه» محبّا له مفتوناً بفنه الغامض الذى يروع باستوائه والتوائه ، إن أمكن أن يجتمع الاستواء والالتواء ، والذى يفتن بدقته وارتفاعه إلا عن العقول والملكات التى امتازت حتى كادت تصبح هى والامتياز شيئاً واحداً. وفى سنة ١٩٠٠ فقد بول ڤاليرى أستاذه

مالرميه وترك وزارة الحرب والتحق بشركة هافاس البرقية واتخذ له زوجاً، وأمعن فى الانصراف عن الأدب، وخيّل إلى نفسه وإلى الناس أن قد قطعت الصلة بينه وبين خصمه هذا العنيد إلى آخر الدهر. ويقول الذين يعرفونه والذين تتبعوا حياته فى الأعوام الأولى من هذا القرن إنه مضى فى حياته العقلية الفلسفية، وإنه تعمق الرياضة التى استعصت عليه فى أيام الشباب الأولى، ولكنه قد نشر فى بعض المجلات وأرسل إلى بعض الأصدقاء مقطوعات من الشعر أحبوها ورضوا عنها. وقد أقبل أندريه جيد ذات يوم على صديقه بول فاليرى سنة ١٩١١ حين بلغ الأربعين من عمره يطلب إليه الإذن فى أن يجمع ما تفرق من شعره لينشره فى المجموعة التى كانت تنشرها المجلة الفرنسية الجديدة. وقد امتنع بول فاليرى على صديقه امتناعاً شديداً، ولكن أندريه جيد ألحّ إلحاحاً شديداً أيضاً، وانتهى الأمر إلى أن قبل فاليرى إعادة النظر فى شعره ذاك.

وقد استأنف النظر فى هذا الشعر، فلم ينفق فى ذلك أياماً ولا أسابيع ولا أشهراً، وإنما أنفق فيه خمسة أعوام أو أكثر من ذلك قليلا. ففى سنة ١٩١٧ فوجىء الناس بظهور الديوان الأول لهذا الشاعر الممتنع على الشعر ولهذا الأديب المتأبى على الأدب. وكان بول فاليرى قد قارب الخمسين من عمره. وليس من شك فى أن ديوانه الأول ثم ما تبعه من الشعر والنثر بعد ذلك قد فجأ المتأدبين فجاءة قوية رائعة، وإذا بول فاليرى يحتل مكانه بين الأدباء والشعراء والممتازين، كأنما كان هذا المكان الممتاز قد هيئ له من قبل فهو ينتظره منذ وقت طويل. ومنذ ذلك الوقت شغلت البيئات والمجلات الأدبية والصحف السيارة بأدب بول فاليرى أكثر مما شغلت بأى إنتاج أدبى آخر. ثم أخذ نجمه يتألق فى الأفق حتى ملأه نوراً، وإذا هو يتجاوز حدود فرنسا إلى أقطار الأرض كلها، وإذا هو أديب عالمى فى أقل من عشر سنين منذ نشر ديوانه الأول، وإذا هو عضو فى المجمع اللغوى الفرنسى فى سنة ١٩٢٧ يشغل كرسى أناتول فرانس ويلقى خطبته الرائعة التى لم يفرغ الناس من الحديث عنها بعد والتى لم يدافع أحد عن أناتول فرانس كما دافع عنه فيها. وقد أنشأت عصبة الأمم مجلس التعاون الفكرى، وأنشأ هذا المجلس لجنة الفنون والآداب، وأصبح بول فاليرى رئيساً لهذه اللجنة بل أصبح عقلها المفكر وقلبها النابض. ثم أنشئ معهد البحر الأبيض المتوسط فى نيس وأصبح بول فاليرى رئيساً له، ثم أنشئ فى الكوليج دى فرانس كرسى للشعر وأصبح

بول فاليرى صاحب هذا الكرسى، وهو قد عين أستاذاً بعد أن نيف على الستين.

وكذلك أصبح بول فاليرى حامل لواء الأدب والشعر فى فرنسا وعلماً من أعلام الثقافة العليا فى أقطار الأرض كلها، واتصل بكل شىء وشارك فى كل شىء، حتى كان يقول إنه أصبح رئيساً لهيئات ومؤسسات لا يكاد يحصيها، وإنه كثيراً ما يدعو نفسه بكتاب منه إليه ليشهد هذا الاجتماع أو ذاك لهذه الهيئة أو تلك.

فإذا امتازت الحياة الأدبية لبول فاليرى بشىء فى ظاهر الأمر فانما تمتاز بامتناع صاحبها على الأدب أشد الامتناع وإيثاره للعزلة حتى جاوز الأربعين، ثم استجابته بعد ذلك للأدب كارهاً، واندفاعه فى هذه الاستجابة حتى عوض ما فات واسترد ما كان خليقاً أن يكسبه من المجد والشهرة فى عزلته الطويلة، وكسب فى وقت قليل ما ينفق فيه غيره الأعوام الطوال والأعوام الطوال ليكسب بعضه. فقد ظهر بول فاليرى فجاءة فى السابعة أو الثامنة والأربعين من عمره، ولم يبلغ الستين حتى كان قد ملأ الدنيا وشغل الناس، كما كان يقال فى المتنبى منذ ألف عام. فلما توفى وقد نيف على السبعين كانت الفاجعة بموته خطباً شاملاً للعالم المثقف كله لا محنة مقصورة على فرنسا وطنه.

وما زالت هناك مسألة غامضة سيكشفها التاريخ الأدبى فى وقت قريب أو بعيد، وهى مسألة عظيمة الخطر. فهل كان بول فاليرى أثناء عزلته الطويلة يتهيأ عن عمد لهذا المجد الأدبى الذى فاجأ به الناس، أم هل كان صادقاً كل الصدق مخلصاً كل الإخلاص فى إعراضه عن الأدب وامتناعه عليه حتى فاجأه المجد كما فاجأ الناس؟ ومهما يكن من شىء فإن الحقيقة الواقعة التى نستطيع أن نسجلها مطمئنين هى أن بول فاليرى قد آثر الأناة والاحتياط والحذر، وأبغض الشهرة والمجد والمتهالكين عليها، وقدر الفن على أنه غاية لا وسيلة، بل على أنه الغاية العليا التى يطمح إليها الانسان حين يبلغ أقصى ما يستطيع أن يبلغ من الامتياز من الثقافة والمعرفة. فهو لم يبغض شيئاً كما أبغض السهولة، ولم يزدر شيئاً كما ازدرى الإسراع إلى الإنتاج والاسراع فى الانتاج والاستجابة لهذه الدواعى الكثيرة التى تدعو إلى الانتاج وتدفع إليه دفعاً فى كثير من الأحيان. وليس بالشىء القليل أن يمتنع الفرد على عصره، ويلتزم عزلته، ويزدرى هذه المغريات الهائلة التى كان الناس يستحيبون لها من حوله، بل يسعون إليها سعياً ويلحون فى التماسها

إلحاحا، ويبتغون إليها من الوسائل مايعقل ومالا يعقل . وهنا تظهر الخصلة التى يمتاز بها بول فاليرى فى حياته الخلقية ، وهى خصلة الكرامة التى تمنح صاحبها مزاجا من التواضع والكبرياء ، وتمنحه التواضع بالقياس إلى المثل العليا وما يحتاج إليه من تكلف الجهد العنيف واحتمال العناء الشاق والإلحاح فى السعى المتصل وتمنحه الكبرياء التى ترفعه عن الصغائر وتنزهه عن الدنيات وترغبه عن الأشياء التى يقرب تناولها ، وتنحرف به عن الغايات التى يسهل الوصول إليها . ثم تؤلف له من هاتين الخصلتين هذا المزاج المعتدل الرفيع الذى يجعله من هذه الأرستقراطية العقلية، وإذا هو يسعى إلى مُثُله العليا على بعدها ملحًّا فى السعى غير راض بما يبلغ منها مهما يكن ما يبلغه ، متخذاً فى سعيه إليها أبعد الطرق وأشدها عسراً وأكثرها عقابا، واجداً لذته فى إساغة هذا العسر وقهر هذه العقاب والتغلب على هذه المصاعب ، مبتكراً هذه العقاب والمصاعب إن أحس أن الطريق قد سهلت له واستقامت أمامه وأصبحت خليقة أن تبلغ به غايته فى جهد معتدل وسعى يسير .

وهذه الخصلة لم تؤثر فى حياته الأدبية وحدها ، وإنما أثرت فى حياته المادية أيضاً ؛ فهو لم يلتمس قط ثروة ولم يسع قط ليبلغ هذا المأرب أو ذاك من مآرب الحياة . ولما أدركته الشهرة لم يستغلها ولم يستثمرها ولم يتخذ أدبه وسيلة إلى فتنة القراء ورضا الجمهور وتحقيق الثراء العريض، وإنما ظل مزدريا للشهرة معرضاً عن المجد، يشتهر عن رغمه ويرقى على كره منه ولا يبلغ من ذلك ثراء ولا رخاء . وقد كان عضواً فى المجمع اللغوى منذ عشر سنين حين أنشئ له كرسيه فى الكوليج دى فرانس ، فهو لم يسع إلى الكوليج دى فرانس وإنما هى التى سعت إليه ، ولم يطلب المجمع اللغوى وإنما هو الذى طلبه ولقد شهدته فى بعض المجامع الأدبية وقد نهض بعض الحاضرين يذكر الأدباء الذين بلغوا من المجد ما بلغوا ويسرت لهم الحياة فاطمأنوا إلى شىء من الدعة ، ولاءموا بين ذلك وبين حرصهم على إرضاء الفن والنهوض بحقه . وكأن بول فاليرى أحس فى حديث هذا المتحدث تلميحاً إليه أو تعريضاً به ، فقال هذه الجملة التى لن أنساها ، فى ذلك الصوت الذى لن أنساه : « نعم بعد أن كادوا يموتون جوعاً » .

وقد عرفت بول فاليرى من بعيد حين فجأ الناس بأدبه الرفيع فى أعقاب الحرب الماضية، فأعجبت به كما كان يعجب به الناس إعجاباً يقوم على التقليد أكثر

مما يقوم على الدراية الصحيحة . ثم أقبلت على آثاره أقرؤها المرة والمرة والمرات ، وإذا أنا أحبه عن فهم له . ولكن أى فهم ! فهم ليس بالقريب ولا بالمقارب ولا باليسير ، وإنما هو نتيجة الجهد المكرر والقراءة المرددة والتفكير المتصل ، ثم هو بعد ذلك ليس راضياً عن نفسه ولا مطمئناً إلى ما وصل إليه . والذين يقرءون آثار بول فاليرى سواء أكانت شعراً أم نثراً يتفقون على أن اللذة التى يحصلونها من هذه القراءة لا تأتى من فهمه واستيعابه ، وإنما تأتى من محاولة فهمه سواء أنجحت المحاولة أم أخفقت ، ثم تأتى مع ذلك من هذه اللغة الصافية العذبة السائغة التى تجمع بين الرقة والرصانة وبين النعومة والجزالة ، والتى تخيل إليك أنها واضحة كل الوضوح ، وهى كذلك واضحة كل الوضوح ولكنها على ذلك مليئة بالأسرار . لا تقرؤها مرة إلا حصّلت من قراءتها علماً ولذة لعقلك وذوقك وشعورك جميعاً . وقد أتيحت لبول فاليرى أشياء لم تتح لكثير غيره من الكتاب والشعراء . فقد كان كشاعرنا القديم المتنبى يستطيع أن ينشد :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

وقد تحدثت فى غير هذا الموضع عن اختلاف العلماء والأدباء من الفرنسيين فى فهم شعره وتأويله وتفسيره وعن قصيدة المقبرة البحرية التى خصص أستاذ من أساتذة السوربون بعض دروسه لتفسيرها للطلاب ، وقد شهد بول فاليرى بعض هذه الدروس ، وجمع الأستاذ بعد ذلك دروسه فى كتاب قدمه له بول فاليرى بمقدمة فيها ظرف وثناء كثير . ولكن الذين يقرءون هذه المقدمة يخرجون من قراءتها غير واثقين بأن الشاعر قد رضى عن شارحه الأستاذ كل الرضا .

وليس نثر بول فاليرى أقل حاجة إلى التدبر والروية ومراجعة القراءة من شعره ، وليس هو أقل إمتاعاً للنفس وإرضاء للعقل والقلب من شعره أيضاً . ومع ذلك فقد كان بول فاليرى نفسه يرى أن النثر أقصر حياة من الشعر ؛ لأن النثر أيسر على الأفهام من الشعر ، وإذا فهمت نصّاً فقد قتلته . ولست أدرى أصحيح هذا أم غير صحيح ، ولكنى واثق بأن الجيل المعاصر لبول فاليرى لم يقبل نثره كما أنه لم يقبل شعره . ولكنى أشارك النقاد المعاصرين من أهل فرنسا فى أن الأجيال المقبلة لن تستطيع أن تتقبل شعره أو نثره ، ولكنى مطمئن كما اطمأن

النقاد المعاصرون فى فرنسا إلى أن بول فاليرى لم يمت وإنما ذهب شخصه المادى ، فأما شخصه المعنوى فخالد فيما ترك من شعر ونثر .

وقد تحدث بول فاليرى نفسه عن «ديكارت» فأنبأ الذين كانوا يسمعون له فى السوربون ان عظماء الرجال من أهل الثقافة خاصة إنما تنمو شخصياتهم وتقوى بعد أن يموتوا وبعد أن يمضى على موتهم وقت طويل أو قصير . وكأنما كان يتحدث عن نفسه ؛ فشعره ونثره وأدبه كله سيقدم إلى الأجيال هذا الغذاء الرفيع ؛ وسيحيا فى هذه الأجيال حياة متصلة ، وستكون هذه الحياة مؤتلفة ومختلفة معاً . مؤتلفة فى هذه الكتب والدواوين التى تركها للانسانية تراثاً ، ومختلفة فى نفوس الذين سيقرءونها ويسيغونها ويتمثلونها ويكونون لأنفسهم صورة ما لصاحبها تلائم ما يستطيعون من التصور والتصوير جميعاً .

ولم يكن بول فاليرى كغيره من الأدباء ينظم الشعر ويكتب النثر فى هذه الموضوعات التى يتكلفها الكتاب والشعراء قصصاً وتمثيلا ودراسات ، ولكنه كان صاحب تعمق لأشياء مختلفة ، لا تكاد تتفق إلا فى أنها كلها تتصل بالفن المترف الجميل من جهة ، وبالعقل الناقد المستقيم من جهة أخرى .

فهو يكتب فى العمارة ، ويكتب فى الرقص ، ويكتب فى النفس ، ويكتب فى العقل ، ويكتب فى التصوير والنحت والرسم والموسيقى والغناء . ثم هو يكتب فى نقد الأدباء والفلاسفة والمثالين والمصورين . وما أعرف أن أحداً قرَّب إلى القراء ديكارت اوليونارد دى ڤنسى أوستندال أومونتسكيو أولافونتين كما يقرِّبهم بول فاليرى . وماأعرف أن أحداً حلل الفنون الرفيعة كما يحللها بول فاليرى . وما أعرف أن أديباً أو فيلسوفاً حلل عمل العقل الانسانى وهو يفكر ويلاحظ ويتأمل ويستمتع ويمكف على نفسه كما حلله بول فاليرى .

وقد قلت فى أول هذا الحديث أن بول فاليرى قد تأثر أشد التأثر بحوار سقراط كما نقله أفلاطون . وما أشك فى أن بول فاليرى كان من أشد الناس إتقاناً للغتين القديمتين ، وعلماً بأسرارها وتذوقاً لخصائصهما . وقد كان يقول فى شىء من السخرية إن الذين يزعمون أنهم يحسنون اللاتينية أو اليونانية فى هذه الأيام يخدعون أنفسهم ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يستعينوا على قطع الوقت فى القطار بقراءة توسيديد أو تاسيت . ولن يحسن الانسان لغة إلا إذا قرأها فى غير مشقة وفهمها فى غير جهد ، وذاقها فى غير عناء . ولكن بول فاليرى لم

يتأثر بقديم اليونان والرومان كما يتاثر به غيره من المثقفين الممتازين فحسب ، وإنما تمثل الأدب اليونانى الرفيع والفلسفة اليونانية العليا تمثلا غريباً رائعاً حقا حتى استطاع أن يحدث ألواناً من الحوار يُنطق فيها سقراط وبعض تلاميذة بملاحظات فى الفن وفى الجمال، منها مايتصل بالعمارة ، ومنها مايتصل بالنفس، ومنها ما يتصل بالرقص ، ما كانت لتخطر لسقراط وأصحابه على بال . وأحسب أنها لو نقلت إلى اليونانية الأتيكية التى كان يصطنعها سقراط وتلاميذه ، لما كانت أقل روعة وجمالا من يونانية أفلاطون ، ولما كانت أقل روعة وجمالا فى تلك اليونانية منها فى هذه اللغة الفرنسية الرصينة المتينة الرقيقة العذبة التى اصطنعها بول ڤاليرى فى القرن العشرين . ثم هى تزيد على ذلك أن فيها معانى وخواطر وآراء لم يكن سقراط وتلاميذه ليسيغوها لأن بينهم وبينها خمسة وعشرون قرناً تطور فيها العقل الانسانى وزاد محصوله من العلم والمعرفة ، وأتاح ذلك كله لبول ڤاليرى ما لم تتحه الحضارة اليونانية لسقراط وأفلاطون .

ومهما تقرأ من شعر بول ڤاليرى ونثره ، ومهما يكن الموضوع الذى يمارسه الأديب شعراً أو نثراً ، فسترى دائماً أدب اليونان الرفيع وثقافتهم العليا شائعين فيما تقرأ يغذوانه بخير ما فيهما ؛ لأن بول ڤاليرى قد خالط اليونان القدماء مخالطة نادرة شديدة التنوع : خالطهم فى أدبهم وفى فلسفتهم وفى فنهم وفى سياستهم ، وخالطهم فى دينهم بتوع خاص ، ثم خالطهم بعد ذلك فى حياتهم العاملة التى كانوا يحيونها فى ساعات النهار والليل .

ثم هو قد أضاف إلى هذه الثقافة القديمة خير ما أنتجت ثقافة العصر الحديث ، فتمثل عصر النهضة فى إيطاليا وفرنسا على اختلاف مظاهر النهضة فيه ، ثم تمثل القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر فى أوربا كلها ، لم يترك ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية إلا أتقنها علماً وفهماً وتأويلاً وتحليلاً . وعنى بالعلم عناية خاصة ، فتعمق العلوم التجريبية ، وتعمق الرياضة حتى استطاع أن يتحدث عن هذه العلوم كأحسن مايتحدث عنها أصحابها ، وأن يجادل الأطباء والعلماء ويصحح لهم آراءهم حين كانوا يشاركون فى وضع المصطلحات العلمية للمعجم الفرنسى الذى يصدره المجمع اللغوى .

ثم هو قد تعمق مذاهب الفلسفة منذ فلسف اليونان قبل سقراط إلى أن فرغ برجسون من إقامة مذهبه الفلسفى الأخير . وهو من أجل ذلك يحاور فى الفلسفة

كأحسن مايحاور فيها الفلاسفة. ولعله يتمثلها خيراً مما تمثلها الفلاسفة ؛ لأنه جمع إلى عقله الناقد الممتاز قلباً ذكياً وإحساساً مرهفاً وشعوراً رقيقاً حادًا وذوقا دقيقاً لا يفوته شيء .

وقد انتهى إلى رأى فى الفلسفة والشعر ، أو قل إنه ابتدأ برأى فى الفلسفة والشعر لم يتحول عنه منذ الشباب حين كتب عن ليونارد دى فنسى فى أواخر القرن الماضى إلى الشيخوخة حين تحدث عن ديكارت فى السوربون سنة ١٩٣٧ .

وهذا الراى يمكن اختصاره فى هذه الجملة اليسيرة التى لا تؤديه إلا تأدية مقاربة ، وهو أن الفلسفة والشعر إنما يصدران فى حقيقة الأمر عن ملكة واحدة فى أصلها، وهى هذه الملكة التى ترفع الانسان عن الحقائق التفصيلية الواقعة إلى عالم آخر أرقى منها ، يفسرها ويعرضها فى شيء غير قليل من الروعة يسمو بها إلى هذا الكمال الذى يطمح إليه الانسان الممتاز . فالفليسوف شاعر يعرض شعره نثراً فى أكثر الأحيان ، والشاعر فيلسوف يعرض فلسفته شعراً دائماً .

وقد كان بول ڤاليرى نفسه هو الصورة الكاملة للفيلسوف الشاعر أو الشاعر الفيلسوف. ومن أجل ذلك لم يخطئ معاصروه حين سموه شاعر العقل ، ولم أبعد أنا حين سميته عقل الشعر فى أول هذا الحديث .

قلت إنى عرفت بول ڤاليرى من بعيد حين فجأ مجده الناس فى أعقاب الحرب الماضية ، وظلت معرفتى له تتقدم شيئاً فشيئاً حتى أصبح أحب المعاصرين من أدباء فرنسا إلىّ وآثرهم عندى ، وحتى أصبح الوقت الذى أنفقه مع كتبه ودواوينه حين يسمح لى العمل بالفراغ لنفسى وإمتاعها باللذة الفنية العليا أعز الأوقات إلىّ وأكرمها علىّ ، وحتى اتخذت لنفسى منه صورة غريبة رائعة فيها كثير جدًا من التواضع وكثير جدًا من الكبرياء ، وفيها كثير جدًا من السماحة وكثير جدًا من الامتياز . وقد هممت أن أعرفه لقراء العربية فتحدثت عنه فى الرسالة غير مرة ، وتحدثت عنه إلى جمهور المثقفين فى غير محاضرة ، وترجمت فى الرسالة شيئاً من كتابه عن النفس والرقص ، ولكنى لم أجد لهذا كله فى نفوس المثقفين الشرقيين إلا صدى ضئيلا فاترت نفسى به . ثم أتيح لى أن ألقاه سنة ١٩٣٧ فإذا الصورة التى رسمتها لنفسى منه صادقة كل الصدق لولا أنه فى تلك السنة لم يكن من الصحة واعتدال المزاج بحيث كان يجب ، وقد كان فى فصل الصيف من تلك السنة يعالج أسنانه فيما يظهر

فكان حديثه عسيراً أشد العسر، وكان الاستماع له شاقًّا والفهم عنه أشد مشقة. وأذكر أنى ذهبت أستمع له حين تحدث عن ديكارت فى السوربون، وبذلت جهداً غير قليل لأظفر بمكان فى المدرَّج الذى كان يتحدث فيه، فظفرت بمكان واقف واستمعت لحديثه من أوله إلى آخره فلم أكد أفهم عنه شيئاً. وسألت بعض الذين استمعوا له معى من الأساتذة فإذا هم مثلى لم يكادوا يفهمون عنه شيئاً، ولكنا جميعاً كنا معجبين بهذا الصوت الهادئ القوى الحار الذى كان يملأ المدرج حناناً وحبًّا وإيماناً. ثم قرأنا الحديث بعد ذلك فإذا هو آية من آيات البيان

على أنى لقيت بول ڤاليرى بعد ذلك لقاء منتظما فى مجلس التعاون الفكرى وفيما كان هذا المجلس يعقد من مؤتمرات، وفيما كانت هذه المؤتمرات تستتبع من اجتماعات خاصة، فإذا أرق الناس حاشية وأحلاهم شمائل وأعذبهم حديثاً وأشدهم سخرية، ولكنها السخرية التى تروق وتروع ولا تؤذى ولا تسوء. ولم يكن يكره الدعابة الحلوة التى لا تخلو من مكر ودهاء. وأذكر أنه كان يرأس مؤتمراً من المؤتمرات يوم افتتاحه، فلما أذن للخطباء جميعاً فى الكلام وفرغ الخطباء من كلامهم وجاء الوقت الذى كان يجب أن يتكلم هو فيه وصفت إليه الآذان وأصغت إليه القلوب واشرأبت إليه الأعناق، قال فى صوت هادئ باسم: الكلمة الآن للرئيس إدوار هريو.

ولم يكن إدوار هريو بين المتكلمين فى هذا الحفل، ولكن بول ڤاليرى أراد أن يسر المستمعين وأن يداعب هريو ويورطه فى حديث مرتجل من هذه الأحاديث التى يتقنها هريو أشد الاتقان.

وكان آخر لقائى لبول ڤاليرى فى مدينة جنيف حين اجتمع مجلس التعاون الفكرى فى يوليو سنة ١٩٣٩ قبيل إعلان الحرب. وكان جو جنيف فى تلك السنة قاتماً كئيباً، وكان أعضاء المجلس جميعاً مشفقين من الحرب وأهوالها، وكان بول ڤاليرى أشدهم إشفاقاً وأعظمهم اكتئابا وأكثرهم تشاؤما. فلم يحب الحضارة أحد كما أحبها بول ڤاليرى، ولم يكبر الحياة أحد كما أكبرها بول ڤاليرى ولم يستيئس أحد من حماقة الإنسان وضعفه وجنونه كما استيأس بول ڤاليرى. ومن أجل ذلك كان فى تلك الاجتماعات لا يتحدث عن شىء ينتظر فى المستقبل إلا تحفظ واحتاط كما نتحفظ نحن ونحتاط فنقول إن شاء الله. ولكنه هو

كان يتحفظ ويحتاط فيقول إن أتيح للحضارة أن تبقى ، أو إن كتب للحرية أن تسلم ، أو إن عصم الانسان من الجنون ، أو ما يشبه هذه العبارات .

وقد كتب على بول فاليرى أن يرى تحقيق كل ما تنبأ به ؛ فقد تنبأ بالحرب وأهوالها ، وتنبأ بما ستلقاه أوربا من ذل ، وتنبأ بما ستتعرض له المثل العليا من ضعة وانحطاط ، وقد رأى هذا كله وذاق مرارته صابراً جلداً شجاعاً . واحتفظ بكرامته أثناء الهزيمة ، وابتهج بالنصر مع المبتهجين وقال لأحد أصدقائه وهو يسمع الأناشيد الوطنية للأمم المنتصرة : كل شيء ممكن . ويظهر أن ما أنفق من جهد وما أخذ نفسه به من صبر وجلد وما حمل نفسه عليه من درس وإنتاج وما تعرَّض له من بؤس وحرمان أثناء أعوام الهول ، كل ذلك قد حطم صحته تحطيما ، فذاق حلاوة النصر واستمتع بلذة الحرية ، ولكنه لم يستطع أن يثبت للنعمة بمقدار ما ثبت للنقمة ، فانهار بعد طول المقاومة ، وفارق هذه الحياة أشد ما يكون الأحياء حاجة إليه . من أجل ذلك لم تحزن عليه فرنسا وحدها ، وإنما حزنت عليه الانسانية المتحضرة كلها . وقد كنت كلما فكرت فى زيارة فرنسا بعد النصر أستحضر ساعة حلوة كنت أعلل نفسى بأنى سأقضيها مستمعا لپول ڤاليرى ، فقد ضيعت الخطوب هذه الأمنية ، وما أكثر ما تضيع الخطوب من الأمانى ! ! .

فحسبى أن أعلل النفس بأنى إن زرت فرنسا فسأسعى إلى قبر پول ڤاليرى فى تلك المقبرة البحرية التى رآها صبيا . وغناها رجلا ، واطمأن فيها الآن إلى آخر الدهر .